كتاب بحوث المؤتمر العلمي الدولي

مُستجدات حفظ العقل في ضُوء الدراسات البينية

Proceedings Book

8-9 مارس 2023م

The concept of reason in the philosophy of Dr. Taha Abdel Rahman and its impact on the rectification of understanding the legal text

Dr Jamal Chtaiba* Nourdine Belkheir

- Faculty of Arts and Humanities- Sidi Mohamed Ben Abdellah University, Fez, Morocco

مفهوم العقل في فلسفة الدكتور طه عبد الرحمان وأثره في تقويم فهم النص الشرعي

الدكتور جمال اشطيبة * نور الدين بالخير

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة سيدي محمد بن عبد الله – فاس – المغرب

chtaibajamal25@gmail.com
arid.my/0005-9456
https://doi.org/10.36772/minds.8

ARTICLE INFO
Article history:
Received 17/04/2023
Received in revised form 12/05/2023
Accepted 11/06/2023
Avalable online 15/07/2023
https://doi.org/10.36772/minds.8

Abstract

Dr. Taha Abdel Rahman is one of the few Muslim thinkers of our time who combines in his research interests a purely rational view of humanistic philosophy with a renewal of consideration of Islamic legal texts.

Among the issues that received special attention from Dr. Taha Abdel Rahman is the issue of reason, which is full of human heritage in general, and the legal text in particular.

However, Dr. Taha Abdel Rahman's philosophy is characterized by a unique view of reason: it did not consider it a self-contained essence as was believed in Greek philosophy, which has a great influence on Islamic thought.

This research aims to deal with Dr. Taha Abdel Rahman's philosophy by studying and analyzing to identify aspects of renewal in Taha Abdel Rahman's perspective of reason and show its impact on the three Islamic sciences: theology, jurisprudence, and mysticism.

KEY WORDS: The concept of reason; Taha Abdel Rahman; the rectification of understanding; the legal texts.

الملخص

يعد الدكتور طه عبد الرحمان من المفكرين المسلمين القلائل في عصرنا الحالي الذين يجمعون في اهتماماتهم البحثية بين النظر العقلي المحض في الفلسفة الإنسانية، وبين تجديد النظر في النصوص الشرعية الإسلامية.

ومن ضمن القضايا التي نالت اهتماما خاصا من الدكتور طه عبد الرحمان قضية العقل التي يحفل بها التراث الإنساني عموما، والنص الشرعي على وجه الخصوص.

بيد أن فلسفة الدكتور طه عبد الرحمان تتميز بنظرة خاصة إلى العقل؛ فهي لم تعتبره جوهرا قائم الذات مثلما ساد الاعتقاد بذلك في الفلسفة اليونانية ذات التأثير الكبير في الفكر الإسلامي.

ويروم هذا البحث تناول فلسفة الدكتور طه عبد الرحمان بالدراسة والتحليل وذلك بغية الوقوف على جوانب التجديد في منظور طه عبد الرحمان للعقل، وبيان أثره في العلوم الإسلامية الثلاث؛ علم الكلام، والفقه، والتصوف.

الكلمات المفتاحية: مفهوم العقل، طه عبد الرحمان، تقويم الفهم، النص الشرعي.

المقدمة:

العقل في التراث الإسلامي عموما والتراث الفلسفي على الوجه الخصوص هو الشيء الذي فضل الخالق به الإنسان على سائر المخلوقات، ولذلك شاع عندهم تعريف الإنسان بكونه حيوانا ناطقا، وهم يقصدون به كونه عاقلا متكلما.

ولا يخفى ما في هذا التعريف من تأثر بالفلسفة اليونانية؛ ذلك أن مفهوم "اللوغوس" في اللغة اليونانية الذي تمت ترجمته بالنطق يحمل الدلالتين معا؛ القول والعقل، ولأنهم لم يظفروا في اللسان العربي بمفهوم يجمع بين الدلالتين فقد ترجموا "اللوغوس" بالنطق، ويعنون به الجمع بين العقل والقول.

وهنا وقع الإشكال الأساس الذي ستكون له آثاره الكبيرة في التراث الإسلامي بمختلف مجالاته المعرفية، بيد أن الأمر لم يقف هنا؛ فلم يتم فقط نقل تعريف الإنسان عن اليونان، بل تم نقل تعريف العقل أيضا عنهم، فصار الإشكال بذلك مزدوجا.

ويرى الدكتور طه عبد الرحمان أن علم الكلام هو أكثر العلوم الإسلامية تأثرا بتعريف اليونان للعقل، وهو ما سماه بـ "العقل المجرد"؛ ولذلك كانت آثار منهجهم ظاهرة أكثر في هذا المجال المعرفي الإسلامي ولاسيما في مبحث الإلهيات.

أما الأصوليون والفقهاء فرغم اشتغالهم بالنص الشرعي إلا أنهم حسب رأيه لم يستطيعوا أن يسلكوا السبل الناجعة الموصلة إلى مقاصد الشرع النافعة، فكان "عقلهم مسددا" حسب تعبيره.

ولم يبق حسب رأيه إلا المشتغلون بالتصوف والذين تمكنوا من الجمع بين الاهتداء إلى مقاصد الشرع النافعة، واتخاذ الوسائل الناجعة لتحقيق ذلك.

ومن ثم فالدكتور طه عبد الرحمان يقسم العقل إلى مراتب ثلاثة؛ العقل المجرد المنقول عن اليونان، والعقل المسدد وهو العقل الفقهي، ثم العقل المؤيد وهو العقل الأخلاقي.

وفي هذه الورقة بيان لتلك المراتب العقلية الثلاث؛ بدءا بالعقل المجرد ذي التأثير البارز في علم الكلام، ثم العقل المسدد الذي يمثله الفقه الإسلامي، فالعقل المؤيد الذي يحضر لدى أرباب التزكية والسلوك والأخلاق.

الجانب العملي (التجريبي أو النظري):

تمهيد: مفهوم العقل في فلسفة الدكتورطه عبد الرحمان

ينطلق الدكتور طه عبد الرحمن في تعريفه للعقل من الدلالات الأصيلة التي يؤديها المفهوم في اللغة العربية، ذلك أن لفظ العقل في اللسان العربي يطلق على التقييد، وهو يفيد معاني ثلاثة؛ التقييد بمعنى الكف، والتقييد بمعنى الضبط والتقييد بمعنى الجمع.) ابن فارس، 1979، مادة عقل).

أما التقييد بمعنى الكف فيقصد به الفعل الذي يجعل الإنسان يكف عن الخطأ في القول والشر في الفعل، والتقييد بمعنى الضبط فيعني أن العقل يمنع ما يُحَصله الإنسان من الانفلات والنسيان، فالفاعلية العقلية من مهامها التي تقوم بها ضبط المدركات والحيلولة دون نسيانها، وأما التقييد بمعنى الجمع، فمعناه وعي الإنسان بما وصله كما يعي الإناء ما يوضع فيه. (طه،2012، ص 63).

ثم يقرر الدكتور طه عبد الرحمن أن وجود بعض الفوارق الدلالية بين الألفاظ الثلاثة لا يمنع من اشتراكها في معنى واحد وهو "الربط"، فالكف ربط مانع، أي أنه يمنع المرء من الوقوع في الزلل النظري والعملي، والضبط ربط ماسك، أي أن العقل يمسك مدركاته ويمنعها من الانفلات، والجمع ربط واصل، أي أن العقل يصل ما يعقله ويعيه، وهكذا فالعقل ينسج شبكة من الارتباطات، ومادام الربط بين الأشياء يعني إدراك تلك العلاقات الكامنة بينها، فيكون العقل حسب طه عبد الرحمن هو "إدراك الإنسان للعلاقات القائمة بين الأشياء". (طه، 2012، ص 63).

بيد أن الدكتور طه عبد الرحمان سيضيف إضافة مهمة في التعريف سيكون لها أثرها الكبير في اجتهاداته المرتبطة بقراءته للنصوص الشرعية، وذلك حينما يحدد المسؤول عن التعقل، حيث يقول: "العقل هو عبارة عن إدراك القلب للعلاقات القائمة بين الأشياء". (طه، 2012، ص 73).

فمن خلال قراءته للوحي الإسلامي خلص الدكتور طه عبد الرحمان إلى أن القلب هو المسؤول عن عمل العقل؛ فقد وجد أن مادة عقل وردت في تسع وأربعين موضعا من القرآن الكريم كلها جاءت بلفظ الفعل، مما يعني أن العقل إنما هو فعل من الأفعال، وليس شيئا أو ذاتا، بل إنه جاء مرتبطا بعمل القلب، كما تدل على ذلك الآية الكريمة: ﴿أَفَلَم يَسِيرُوا فِى ٱلأَرضِ فَتَكُونَ لَهُم قُلُوب يَعقِلُونَ بِهَا أَو ءَاذَان يَسمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعمَى ٱلأَبصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعمَى ٱلقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:46].

كما وجد أن الفقه كذلك مرتبط بالقلب مثله مثل العقل؛ فيكون الفقه إذن -كالعقل- عمل من أعمال القلب، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة ﴿لهم قلوبٌ لا يفقهون بها﴾ [الأعراف:179].

لكن رغم كون الفقه عمل من أعمال القلب إلا أن الفقه الإسلامي يكاد يخلو من بحث القلب؛ وهذا الصنيع الذي صنعه الفقهاء "وهم المشتغلون بالنظر في النصوص الدينية ليثير العجب متى علمنا أن عدد الآيات التي ذكر فيها لفظ "القلب" مفردا ومثنى وجمعا، تبلغ اثنتين وعشرين ومائة آية...ويبلغ العجب مداه حين نراهم يقيمون علم الشريعة تحت مسمى "الفقه" ولا يولون فيه لموضوع القلب أية عناية خاصة، مع أن لفظ "الفقه" ورد في صيغة الفعل منسوبا إلى القلب في سبع آيات". (طه، 2012، ص 70).

ويرجع سبب هذا الخلل الذي وقع في العلوم الإسلامية حسب الدكتور طه عبد الرحمان إلى نقل تعريف العقل عن اليونان إلى مجال التداول العربي الإسلامي، والذي أحدث آفات

عدة؛ منها تجوهر العقل وتشييئه، وتجزيء الإنسان، وغيرها من الآفات التي تسعى هذه الورقة البحثية إلى التصدي لها، بداية من العقل المجرد، مرورا بالعقل المسدد، ثم ختاما بالعقل المؤيد.

المحور الأول: العقل المجرد وعلاقته بعلم الكلام الإسلامي

العقل المجرد عند الدكتور طه عبد الرحمان هو أدنى مراتب العقل، وهو "العقل المنقطع عن العمل الشرعي". (طه، 2012، ص 93).

إن طه عبد الرحمن يرى أن حدود العقل المجرد وآفاته لا تتكشف في مجال معرفي مثلما تتكشف في مبحث الإلهيات، حيث يقول: "إعلم أن مبحث الإلهيات هو أحد العلوم النظرية التي تختص بالتوسل بالعقل المجرد في التحصيل والتبليغ، وأن هذا المبحث هو أكثر العلوم المتوسلة بالعقل المجرد". (طه، 1997، ص 21).

لكن العقل المجرد بذلك التعريف الذي قدمه له الدكتور طه عبد الرحمان يجعل مهمة النظر في الإلهيات مستحيلة أو على الأقل قاصرة، ولذلك كان من اللازم الاستعانة بأداة فعالة للتعامل مع هذا المبحث، فتم الاعتماد على اللغة، بيد أن هذه هي الأخرى تتسم بالقصور، ونتج عن اعتمادها في هذا المجال المعرفي الإسلامي جملة آفات ذكر منها الدكتور طه عبد الرحمان آفة "الرمزية"، وآفة "الظنية"، وآفة "التشبيه".

الآفة الأولى، آفة الرمزية؛ فاللغة هي مجرد وصف رمزي صوري "وهذه الحقيقة تدعو إلى القول بمبدأ استقلال مستوى اللغة عن مستوى الوجود، وقيام كل واحد من المستويين بشروط معينة لا يشاركه فيها الآخر". (طه، 1997، ص 26).

والآفة الثانية، وهي الظنية؛ ذلك أن النظر في الإلهيات لا يرقى إلى درجة اليقين، بل هو أشبه بالخطاب العادي الذي تداوله عامة الناس "يجتهد في اصطناع جهاز كامل من الاستدلالات التي تنسب لها الصفة البرهانية المفيدة لتحصيل اليقين". (طه، 1997، ص 28).

والآفة الثالثة، هي آفة التشبيه؛ فمن مظاهر قصور اللغة في تعاملها مع مجال الغيب أنها تعتمد على مبادئ المقارنة، والتشبيه، والقياس؛ وتلك طبيعة اللغة كما يقول الدكتور طه عبد الرحمان "وإذا سلمنا بأن النظر يسلك سبل المشابهة، لزم أن من يخوض في الإلهيات واقع، شاء أم أبى تحت وطأة الأساليب التشبيهية في تقريبه للمطلوب الغيبي وتقديره لصفاته". (طه، 1997، ص 30).

وهذه الآفة لا يسلم منها المرء مهما حاول نفيها وذلك باستعمال مفاهيم ومقولات تنفي تشبيه الخالق بالمخلوق من مثل مقولات "التعالي" و"الإطلاق" وغيرها من الأوصاف، فكل تلك الطرق تتضمن صورا من التشبيه "تدق عن الأفهام ولو توجهت فيها الهمم بالتنزيه". (طه، 1997، ص 30-31).

وعند الفرار من هذه الآفة؛ آفة التشبيه، يجد الناظر نفسه قبالة آفة أخرى من آفات التعويل على العقل المجرد في إدراك الإليهات ألا وهي آفة التعطيل؛ فإذا كان المشبه قد وقع في خطأ تشبيه الخالق بالمخلوق، فإن المعطل فرارا من تلك الآفة قد وقع في خطأ تشبيه الموجود بالمعدوم. (طه، 1997، ص 31).

خلاصة القول: إن العقل المجرد لما كان مقطوعا عن العمل الشرعي الذي يوسع آفاقه ويقوي قدراته، فإنه قد وقع في ضيق الرؤيا التي تجعله "لا يرى في الأشياء إلا ظواهر لا باطن لها، ولا في الآثار إلا مظاهر لا ظاهر فوقها، ولا يحصل له اليقين، لا في مقاصد أعماله من حيث نفعها، ولا في وسائلها من حيث نجوعها". (طه، 2012، ص 93).

ومن ثم وجب على العقل المحرد أن يكف عن غروره، الذي يوهم صاحبه بأنه قادر على إدراك حقائق الأشياء كلها، وأن يؤوب إلى أصل فطرته التي فطره الخالق عليها، وأن يسعى إلى الاتصال بالشرع الذي ينير له الدروب التي يعجز أن اقتحامها.

المحور الثاني: العقل المسدد وقصوره في إدراك مقاصد النص الشرعي

العقل المسدد وأوصافه:

تنقسم العقلانية غير المجردة عند الدكتور طه عبد الرحمان إلى قسمين "العقلانية غير المجردة القادرة على إدراك المعاني الثابتة والشاملة" و"العقلانية غير المجردة القادرة على إدراك الوجوه المتغيرة والخاصة". (طه، 2000.ص 70).

فالأولى يسميها الدكتور طه عبد الرحمن "العقل المسدد"، وهو ما سيتم تفصيل القول فيه ضمن هذا المحور، والثانية يسميها "العقل المؤيد"؛ وسيرجأ فيه القول إلى المحور الموالي.

يقول طه عبد الرحمن في تعريف العقل المسدد بأنه "عبارة عن الفعل الذي يبتغي به صاحبه جلب منفعة أو دفع مضرة، متوسلا في ذلك بإقامة الأعمال التي فرضها الشرع". (طه ،1997، ص 58).

فقد حدد للعقل المسدد ثلاثة أوصاف هي؛ الموافقة للشرع، واجتلاب المصلحة، ثم الدخول في الاشتغال.

ولنبدأ بالوصف الأول وهو الموافقة للشرع؛ فالعقل المسدد عند الدكتور طه عبد الرحمان هو -بخلاف العقل المجرد- عقل متصل بالعمل الشرعي؛ "وتزود بنصيب منه يكفي لأن يتبين العمل الصالح من غيره". (طه، 2012، ص 93).

فصاحب العقل المسدد لا ينسب الأفعال إلى نفسه كما يفعل صاحب العقل المجرد، بل ينسبها إلى الخالق، ولا يرى الأشياء إلا في سياق ارتباطها بالمالك؛ ذلك أن صاحب العقل المسدد لما رأى أن المقاصد التي يتوخاها هي عين المقاصد التي جاء بها الشرع فقد حصل له اليقين في نفع تلك المقاصد "وإن لم يحصل له تمام اليقين في نجوع أعماله التي يتوسل بها في تحقيق هذه المقاصد، ذلك لأن هذه الأعمال تدخل عليها آفات وشوائب لا يكاد يتخلص منها،

وحتى إذا اجتهد في التخلص منها في ظاهره بموافقة ظاهر الشرع، فإنه لا ينجح في التخلص منها في باطنه". (طه ،2012، ص 93).

الوصف الثاني: اجتلاب المنفعة؛ والمقصود بها فلسفة الدكتور طه عبد الرحمان المنفعة الشرعية السليمة من النقائص الموجودة في المنفعة غير الشرعية والتي حددها في نقائص ثلاثة، وهي "الصفة المادية"، و"الصفة السطحية"، و"الصفة الذاتية". (طه ،1997، ص 60).

فالمنفعة المطلوبة من قِبل العقل المسدد هي المنفعة الشرعية، وذلك لتمام علمه بكمال تلك المنفعة وشمولها لمختلف جوانب الحياة الإنسانية، وموافقتها لأصل الفطرة التي فطر عليها الناس؛ إنها منفعة تجمع بين المادي والمعنوي، وتربط الظاهر بالباطن، وتصل السعي الأفقي للإنسان بسعيه العمودي. (الكور،2017).

الصفة الثالثة: الدخول في الاشتغال، ويقصد به الدكتور طه عبد الرحمان الانتقال من النظر إلى العمل؛ وذلك لما يقوم به العمل من وظائف أربع مترابطة فيما بينها؛ وهي التشخيص، والتشريف، والتوسيع، والتصحيح. (طه ،1997، ص 61).

ومعنى التشخيص هو إخراج الشيء من عالم التصور والنظر إلى عالم الواقع والعمل؛ وهو ما صار مطلوبا ملحا في الفلسفة الحديثة. وينتج عن التشخيص وظيفة ثانية وهي التشريف؛ وذلك لأن الشرع جعل شرف العمل مرتبطا بالعمل، بخلاف الفلسفات القديمة التي جعلت شرف العلم مرتبطا بالنظر.

وينتج عن وظيفتي التشخيص والتشريف وظيفة ثالثة وهي التوسيع؛ فقد وسع العمل الشرعي الآفاق الإنسانية، وفتح أمامها عوالم جديدة كانت موصدة في وجوه أصحاب النظر العقلي المجرد.

الوظيفة الرابعة التي تتمخض عن الوظائف الثلاث السابقة وهي وظيفة التصحيح؛ فمن اكتفى بمجر النظر العقلي المحض لا يأمن من دخول الشبهات على عقله؛ وذلك لأن العمل يكشف الكثير من جوانب الخطأ في الفهم، ومن ثم يكون له شرف تصحيح تلك المفاهيم، وتقويم اعوجاجها.

قصور العقل المسدد في الوصول إلى مقاصد الشرع

إن العقل المسدد رغم اهتدائه إلى معرفة مقاصد الشرع إلا أنه عقل عاجز عن سلوك السبل الناجعة إلى تحقيق تلكم المقاصد النافعة؛ فأما بالنسبة لاهتدائه إلى معرفة مقاصد الشرع النافعة فقد سبق بيان ذلك بكون هذا العقل إنما سمي كذلك لكونه قد تجرد من حوله وقوته واتصل بالعمل الشرعي، وأما بالنسبة للسبل التي تتخذ لتحقيق لتلك المقاصد فإنها لما كانت متغيرة وخاصة فإن صاحبها قد صار معرضا لآفات مختلفة، جمعها الدكتور طه عبد الرحمان في آفتين اثنتين هما: "آفة التظاهر" و "آفة التقليد". (طه، 2000، ص 71).

الآفة الأولى آفة التظاهر: وهي عبارة عن خلل يقع لدى العامل بين ظاهر العمل الذي يقوم به وبين مقصده من العمل؛ وقد صنفها الدكتور طه عبد الرحمان في ثلاثة مقاصد أصلية كلية، هي: "مقصد التقرب إلى الله"، و"مقصد التقرب إلى الناس"، و"مقصد التوجه إلى النفس". (طه،1997، ص 79).

فأما الخلل في المقصد الأول فقد سماه بـ "التكلف"؛ وهو آيل إلى الوقوع في المقصد الثاني وهو التقرب إلى الناس، والذي أطلق عليه اسم "التزلف"، أو الوقوع في مقصد التوجه إلى النفس والذي سماه ب "التصرف". (طه، 2000، ص 71).

الآفة الثانية: آفة التقليد: ومعناها أن يقوم العامل بفعل بناء على قول غيره، من دون أن يكون لديه دليل عملي يثبت فائدة ذلك القول؛ سواء وقع ذلك منه على سبيل الاتفاق، أو على سبيل العادة، أو حتى بالاستناد إلى دليل نظري. (طه ،1997، ص 83).

فأما الأول فمعناه أن يعمل العامل بقول الغير من دون أن يقدم له دليلا نظريا على صحة ذلك القول؛ وهو الذي اشتهر باسم التقليد، وهو الذي ذمه أكثر الأصوليين وحرمه بعضهم.

وأما التقليد النظري فمعناه أن يعمل بقول الغير مع وجود دليل نظري على ذلك، من غير وجود دليل عملي يصحح قوله.

وأما الدليل العادي فهو أن يعمل بقول الغير مع حصر الدلالة العملية لهذا القول في الحركات الظاهرة، سواء استند هذا العمل إلى دليل يصحح القول المعمول به أو لم يستند إلى دليل. (طه، 2000، ص 71-72).

وللنجاة من هذه الآفات التي تعترض العقل المسدد يلزمه أن يتخذ السبل الناجعة من أجل الوصول إلى مقاصد الشرع النافعة، وذلك بالاعتماد على العلم الذي يحصل منه اليقين بصدق العزم، وصحة الدليل، وبالدخول في العمل الشرعي الذي يُحصل منه التجربة النافعة.

وبهذا الصنيع تبدأ آفاق العقل المسدد في التوسع، وتزداد قدرته على الإدراك، ويصير بذلك مستعدا للدخول في وصف جديد هو ما سماه الدكتور طه عبد الرحمان ب "العقل المؤيد"، وهو ما سيتم تفصيل القول فيه في المحور التالي.

المحور الثالث: العقل المؤيد وكمالاته

سبق الحديث عن محدودية العقل المجرد، ومظاهرها في علم الكلام الإسلامي، وعن قصور العقل المسدد والآفات التي تعترض صاحبه في مجال الفقه الإسلامي، ولم يبق إلا العقل المؤيد الذي جعله الدكتور طه عبد الرحمان في أعلى مرتبة من مراتب العقل؛ فما مفهوم هذه الدرجة العقلية؟ وما دليل كمالها في فلسفة الدكتور طه عبد الرحمان؟

العقل المؤيد في فلسفة الدكتور طه عبد الرحمان هو "عبارة عن الفعل الذي يطلب به صاحبه معرفة أعيان الأشياء". (طه ،1997، ص 121).

فالعقلانية المؤيدة هي إذن فعل يتعدى مجرد النظر، ثم إن صاحبه يطلب به معرفة أعيان الأشياء، وليس ظواهرها، أو أوصافها الخارجية؛ ف"إذا كان العقل المجرد يطلب أن يعقل من الأشياء..."رسومها"، وكان العقل المسدد يقصد أن يعقل من هذه الأشياء أفعالها الخارجية أو "أعمالها" فإن العقل المؤيد...يطلب بالإضافة إلى هذه الرسوم وتلك الأعمال الأوصاف الباطنة والأفعال الداخلية للأشياء". (طه ،1997، ص 121).

فهو العقل الذي استطاع من خلال تغلغله في العمل الشرعي وأخذه بأخلاق الفطرة التي خلق الله الناس عليها أن يتجاوز آفات وحدود العقلين المجرد والمسدد؛ يقول الدكتور طه عبد الرحمن: "والثالث، "العقل المؤيد"؛ والمقصود به هو العقل الذي تغلغل صاحبه في العمل الشرعي، حتى تلبَّس به باطنه، فضلا عن ظاهره، بحيث تكون أعمال جوارحه مطابقة لأعمال قلبه، بل قد تغلِب أعمال قلبه على أعمال جوارحه". (طه ،1997، ص 94).

ولما كان العقل المجرد مقطوع عن العمل الشرعي، فإن العقل المؤيد بخلافه موصول بالعمل الشرعي، وهنا يتساوى مع العقل المسدد الذي حصل له اليقين في مقاصد الشرع، ولكن لم يحصل له مثل ذلك في الوسائل التي يتوسل بها إلى تحقيق تلك المقاصد.

أما العقل المؤيد فهو يزيد على العقل المسدد في كونه لم يهتد فقط إلى مقاصد الشرع النافعة، بل تمكن كذلك من الأخذ بالأسباب الناجعة للوصول إليها؛ إنه يجمع بين شرطي النجوع في الوسائل التي يوظفها، والنفع في المقاصد التي يبتغيها.

يقول الدكتور طه عبد الرحمان: "ومن هنا، فإن صاحب العقل المؤيد يحصل له اليقين في نفع المقاصد التي يتوخى تحقيقها، كما يحصل له اليقين في نجوع الأعمال التي يتوسل بها في تحقيق هذه المقاصد، لأن هذه المقاصد والأعمال هي عين المقاصد والأعمال التي تقرَّرت في الشرع". (طه ،1997، ص 94).

يجمع العقل المؤيد إذن فضائل العقل المسدد، ويتقي آفاته؛ فهو عقل عملي، وليس عقلا نظريا مجردا فقط، وقد سبقت الإشارة إلى مزية العمل الشرعي من حيث إنه "يفيد في إخراج الشيء من عالم التصور إلى عالم التحقق، ويعلو بقيمة الشيء الذي يدخل في مجاله، ويفتح آفاقا إدراكية وعملية جديدة، كم أنه يقوم بتصحيح السلوك، إن تأصيلا فيرده إلى الأصول، أو تصويبا فيدله على أصح المقاصد، أو تقويما فيمده بأنفع الوسائل". (طه ،1997، ص 122).

بيد أن العقل المؤيد ينقل المشتغل الديني نقلة أخرى، حيث إنه يجعله يقصد ليس فقط معرفة الصفات كما هو الحال بالنسبة للعقل المجرد، وليس فقط معرفة الأفعال كما هو الشأن بالنسبة للعقل المسدد، بل إنه يقصد معرفة الذات "ولا سبيل إلى معرفة الذات بطريق النظر لأنه لا يوصل إلا إلى الصفات، ولا بطريق العمل لأنه لا يوصل إلا إلى الأفعال، وإنما بلوغ ذلك يتم بطريق يجمع بين النظر والعمل والتجربة". (طه،1997، ص 122).

وهذا ما يسميه الدكتور طه عبد الرحمن بالملابسة، ومعناها عندها هي "النظر العملي الحي"؛ وهي مراتب ثلاثة: المرتبة الدنيا: "المزاولة"، وتغلب فيها الأعمال الظاهرة للجوارح، والمرتبة الوسطى وهي "المخالطة"، وتنعكس فيها آثار أعمال الجوارح على الجوانح، والمرتبة العليا "المباطنة"، وهي التي تغلب فيها الأعمال الباطنة للجوانح فتنعكس آثارها على الأعمال الظاهرة للجوارح. (طه، 1997، ص 125-129).

ومن هنا يرى الدكتور طه عبد الرحمن أن العقل المؤيد لا تظهر كمالاته في الممارسة العقلانية بقدر ما تظهر في الممارسة الصوفية؛ ويتم ذلك عبر المرور بمراحل ثلاث؛ وهي التخلص؛ ومعناه التحرر من التبعية الشيئية؛ والمتمثلة في الآثار الكونية التي حوله.

والإخلاص، وهو التحرر من التبعية العملية، والمتمثلة في طلب الانتفاع من العمل، وتعظيم قيمة العمل، ونسبته إلى الذات. ثم الخلاص، والمتمثل في الشعور بالافتقار وبالاضطرار.

فإذا انعتق المشتغل بالعمل الشرعي من السعي وراء الانتفاع من العمل "كفَّ عن المنازعة في الاستحقاق، وسلم بسبق المنة الإلهية، وإذا انعتق من النزعة إلى تعظيم العمل، كف عن المنازعة في الاستحقاق وفي التبعية، وسلم بإسناد التسديد إلى العمل الشرعي، فضلاً عن تسليمه بسبق المنة الإلهية؛ أما إذا انعتق من الميل إلى نسبة العمل إلى النفس، كف عن المنازعة في الاستحقاق وفي التبعية وفي الخَلقية، وسلم بمخلوقية أفعاله كلها، فضلاً عن تسليمه بالخاصية التسديدية للعمل الشرعي، وبسبق المنة الإلهية". (طه، 1997، ص 138).

فالعقل المؤيد إذن هو عقل ينسب كل فضل هو فيه إلى خالقه؛ لأنه عقل موصول بأصل الفطرة التي فُطر عليها، ومن ثم فهو يتبرأ من كل حول وقوة هي له، ويرجع الأمر إلى صاحب الخلق والأمر وحده.

النتائج والمناقشة:

العقل في فلسفة الدكتور طه عبد الرحمان ليس جوهرا مستقل الذات كما هو الحال بالنسبة للفلسفة اليونانية ذات التأثير الكبير في الفكر الإنساني عموما والفكر الإسلامي على وجه الخصوص، وإنما العقل في الفلسفة الطهائية فعل من أفعال القلب.

وهو بناء على ذلك متصف بصفة التنوع والكثرة؛ إنه مثل القلب متقلب الأحوال؛ بين عقل نظري معتد بنفسه، ناسبا الفضل إليه، واقع في شبه الانقلاب والانتكاس، إلى عقل عملي مشتغل بالعمل الشرعي لكنه معرض للوقوع في شبه التظهير والتجزيء، ثم عقل متحرر من كل الشبه والآفات التي تعترض العقلين السابقين.

وخلاصة القول: إن العقل في فلسفة الدكتور طه عبد الرحمان مراتب ثلاثة؛ المرتبة الأولى مرتبة العقل المجرد الذي حفلت به الفلسفة الإسلامية نقلا عن الفلسفة اليونانية، وهو العقل المستقل الذي يكاد أن يكون مساويا للإله، أو فيه شبه من الإله، وهو ما انعكس أثره في علم الكلام وفي مبحث الإلهيات على وجه الخصوص.

المرتبة الثانية مرتبة العقل المسدد الذي يعتمد عليه الفقهاء المشتغلون بنصوص الشرع، والذين بالغوا في تقنين أحكام الشرع، مما نتج عنه إهمال المعاني الخُلقية؛ فرغم أن هذا العقل مشغل بنصوص الشرع إلا أنه غافل عن مقاصدها وغايتها.

المرتبة الثالثة مرتبة العقل المؤيد وهو العقل الذي جمع بين حفظ النصوص وبين إدراك المعاني والمقاصد، وهو العقل الأخلاقي.

المصادر والمراجع

- طه عبد الرحمان (1997). العمل الديني وتجديد العقل، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

- طه عبد الرحمان (2012). روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

- طه عبد الرحمان (2000). سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

- طه عبد الرحمان (2012). سؤال العمل: بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

- ابن فارس أحمد (1979). معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، دار الفكر.

- الكور عبد الجليل (2017). مفهوم الفطرة في فلسفة طه عبد الرحمان، بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع.